مقتل أبي الطيب المتنبي

بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته

للدكتور عبد الوهاب عزام

خرج أبو الطيب من شيراز لثمان خلون من شعبان قاصداً بغداد فالكوفة [١]

ويقول بعض الرواة إن أبا الطيب لما قدم على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس محلاة ، ثم دس إليه من يسأله أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال : إن سيف الدولة كان يعطي طبعاً وعضد الدولة تطبعاً . فغضب عضد الدولة وأوصى إلى جماعة أن يقتلوه [٢]. وروى صاحب الايضاح أن عضد الدولة قال إن المتنبي كان جيد الشعر بالغرب . فلما بلغت المتنبي قال : الشعر على قدر البقاع [٣]

وهاتان روايتان لا تثبتان على النقد . فأبو الطيب قد أفرغ وسعه في مدح صاحبه ونال من جوائزه ما ملأه شكراً . فكيف قال ما نسب إليه ؟ وكيف وهو يعلم أن كلامه حري أن يبلغ عضد الدولة ؟

وعندنا رواية تخالف هذه :

قال صاحب الصبح المنبي : حكى عبد العزيز بن يوسف الجرجاني كاتب الانشاء عند عضد الدولة قال : لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه أتبعه بعض جلسائه ، وقال له سله كيف شاهد مجلسنا وأين الأمراء الذين لقيهم منا . قال : فامتثلت أمره وجاريت المتنبي في هذا الميدان . وأطلت معه عنان القول . فكان جوابه عن جميع ما سمع مني أن قال ما خدمت عيناي قلبي كاليوم . ولقد اختصر اللفظ وأطال المعنى وأجاد فيه . وكان ذلك من أوكد الأسباب التي حظي بها عند عضد الدولة

فهذه الرواية أشبه بحزم أبي الطيب . ولماذا يقول الشاعر في أمير أفاض عليه عطاءه إن هذا عطاء متكلف وسيف الدولة كان يعطي طبعاً ؟ أكان يبغي إرضاء سيف الدولة وهو في شيراز ولا يبالي إغضاب عضد الدولة وقد قصده وبذل في مدحه وسعه ، ونال من عطاياه ما أثقله شكراً . ورواية « الشعر على قدر البقاع » سبيلها في الرد والدحض سبيل أختها

ثم ما الذي يغري ابن بويه بقتل شاعر عظيم أشاد بذكره وآثره بالمدح على ابن عمه معز الدولة ووعده أن يرجع إليه ليخلد مآثره . إن أعداء عضد الدولة أولى بهذه التهمة . وقد أدرك بعض المعاصرين أن قتل أبي الطيب إخفار لذمة عضد الدولة فأنشأ أبياتاً يحرضه فيها على عقاب من أخفروا ذمته

سار الشاعر بمراكبه وأحماله وغلمانه حتى بلغ الأهواز

وبين الأهواز وشيراز واحد وخمسون فرسخاً . ثم سار خمسين فرسخاً حتى بلغ واسط . وهنا نقف لنعرض على القارئ روايتين : الأولى مروية في الصبح المنبي عن الخالديين قالا :

« كنا قد كتبنا إلى أبي نصر محمد الجبلي نسأله عما صدر لأبي الطيب المتنبي بعد مفارقته عضد الدولة وكيف قتل — وأبو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية وله فضل وأدب جزل وحرمة وجاه — فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول في أثنائه : وأما ما سألتنا عنه من خبر مقتل أبي الطيب فأنا أسوقه وأشرحه شرحاً بيناً » وفي هذا الشرح يذكر أبو نصر قتل أبي الطيب وسببه . ثم يبين تربص فاتك الأسدي في طريق الشاعر وعزمه على قتله فيقول :

« وأما شرح الخبر فان فاتكا هذا صديق لي . وهو كما سمى فاتك لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال في مواقف القتال . فلما سمع الشعر الذي هجا به ضبة اشتد غضبه . ورجع على ضبة باللوم وقال له كان يجب ألا تجعل لشاعر عليك سبيلاً . وأضمر غير ما أظهر »

واتصل به انصراف المتنبي من فارس وتوجهه إلى العراق . وعلم أن اجتيازه بجبل [١] دير العاقول . فلم يكن ينزل عن فرسه ومعه جماعة من بني عمه رأيهم في المتنبي مثل رأيه من طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد

وكان فاتك خائفاً أن يفوته . وكان كثيراً ما ينزل عندي . فقلت له يوماً وقد جاءني وهو يسأل قوماً مجتازين عن المتنبي

(١) ابن خلكان (٢) الصبح ص ٦٩ (٣) الخزانة ج ١

(١) أظنها محرفة عن « جهة » أو « جيال » فليس عند دير العاقول جبل

فقلت له أكثرت المسألة عن هذا الرجل . فأى شيء تريد منه إذا لقيته ؟ فقال ما أريد إلا الجميل وعذله على هجاء ضبة . فقلت له هذا لا يليق بأخلاقك . فتضاحك ثم قال : يا أبا نصر والله إن اكتحلت عيني به أو جمعتني وإياه بقعة لأسفكن دمه ، ولأمحقن حياته . قلت له كف عافاك الله عن هذا القول ، وأزل هذا الرأى من قلبك فان الرجل شهير الاسم ، بعيد الصيت . ولا يحسن منك قتله على شعر قاله . وقد هجت الشعراء الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الاسلام . فما سمعنا بشاعر قتل بهجائه . وقد قال الشاعر :

هجوت زهيراً ثم إنى مدحته
وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

ولم يبلغ جرمه ما يوجب قتله . فقال يفعل الله ما يشاء وانصرف

ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة أيام حتى وافانى المتنبي ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والتحملات النفيسة والكتب الثمينة والآلات . لأنه كان إذا سافر لم يخلف فى منزله درهماً ولا شيئاً يساويه . وكان أكثر إشفاقه على دفاتره لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً »

قال أبو نصر « فتلقيته وأنزلته دارى ، وسألته عن أخباره وعمن لقى . فعرفنى من ذلك ما سررت له وأقبل يصف ابن العميد وعلمه وكرمه وكرم عضد الدولة ورغبته فى الأدب وميله إلى أهله

فلما أمسينا قلت يا أبا الطيب على أى شيء أنت مجمع ؟ قال على أن آخذ الليل مركباً فان السير فيه يخف على . فقلت هذا هو الصواب رجاء أن يخفيه الليل ولا يصبح إلا وقد قطع بلداً بعيداً . وقلت له والرأى أن يكون معك من رجالة هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد . فقطب وجهه وقال لم قلت هذا القول ؟ فقلت لتستأنس بهم ، فقال أما والجراز فى عنق قنابى حاجة إلى مؤنس غيره . قلت الأمر إليك ، والرأى فى الذى أشرت عليك . فقال تلويحك ينبى عن تعريض ، وتعريضك ينبى عن تصريح . فعرفنى الأمر وبين لى الخطب . قلت إن الجاهل فاتكا الأسدى كان عندى منذ ثلاثة أيام وهو غير راض عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبة . وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراز والتيقظ ، ومعه أيضاً نحو العشرين من بنى عمه قولهم مثل قوله . فقال غلام أبى الطيب وكان عاقلاً : الصواب ما رآه أبو نصر . خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد . فاغتاظ وشتمه شتما قبيحاً . وقال والله لا أرضى أن يتحدث عنى الناس بأنى سرت فى خفارة أحد غير سيفى . قال أبو نصر فقلت يا هذا أنا أوجه قوماً من قبلى يسيرون بمسيرك وهم فى خفارتك . فقال والله لا فعلت شيئاً من هذا

ثم قال : يا أبا نصر ! بخوء الطير تخوفنى ومن عبيد العصا تخاف على ؟ والله لو أن مخصرتى هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون بخمس وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده . معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين . فقلت له : قل إن شاء الله تعالى ، فقال هى كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ، ولا تستجلب آتياً

ثم ركب فكان آخر العهد به . » اه

نقف هنا لنتأمل فى هذه الرواية المطولة قبل أن نقيسها إلى رواية أخرى :

يقول الخالديان إنهما كتبا الى نصر محمد الجبلى ثم يقولان : « وأبو نصر هذا من وجوه الناس فى تلك الناحية » ليس فى الرواية تصريح باسم ناحية ولكن ذكرت ضمناً فى نسبة أبى نصر « الجبلى » . والذى أراه أنها نسبة الى جَبَّل وهى بلدة بين النعمانية وواسط على دجلة تبعد عن النعمانية خمسة فراسخ الى الشرق والجنوب ، وعن دير العاقول ثلاثة عشر فرسخاً . فهذا الراوى من بلدة تبعد عن مقتل أبى الطيب نحو أحد عشر فرسخاً وهو صديق للشاعر وقاتله . وخلاصة روايته :

١ — أن فاتكان الأسدى خال ضبة العينى الذى هجاه أبو الطيب كان يكثر السؤال عن الشاعر ليقتله انتقاماً لأخته التى هجاها . وقد صرح بهذا لأبى نصر

٢ — وأن أبا الطيب نزل على أبى نصر بجبَّل فأخبره ونصحه بالحذر فلم يقبل . واحتقر فاتكا وقومه احتقاراً شديداً وغلا فى كلامه غلواً لا يليق برجل عاقل

وفى خزانة الأدب نقلا عن الايضاح رواية أخرى نصها :

« وأخبرنا أبو الحسن السوسى فى دار الوقف بين السورين ، قال : كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبى . وورد عليه المتنبى ونزل عن فرسه ومقوده بيده وفتح عيابه وصناديقه لبلال مسها فى

الطريق وصارت الأرض كأنها مطارف منشورة . فحضرته أنا وقلت قد أقمت للشيخ نزلاً . فقال المتنبي ان كان ثم فهاته . ثم جاء فاتك الأسدي يجمع وقال قدم الشيخ هذه الديار وشرفها بشعره والطريق بينه وبين دير قُنّة موحش قد احتوشته الصعاليك ، وبنو أسد يسيرون في خدمته الى أن يقطع هذه المسافة ، ويبرّ كل واحد منهم بثوب بياض . فقال المتنبي ما أبقى الله بيدي هذا الأدهم وذباب الجراز الذي أنا متقلده فاني لا أفكر في مخلوق . فقام فاتك ونفض ثوبه من رتوت الأعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حسوا سبعين رجلاً ورصدوا له . فلما توسط المتنبي الطريق خرجوا عليه ، الخ »

هذه رواية تؤيد الأمدي في أن أبا الطيب أبى أن يسير في خفارة أحد ، وتخالفها في أن فاتكا هو الذي عرض على الشاعر أن يخفره . ومعنى هذا أنه ما كان مبيتاً شراً له وأنه لو قبلت خفارته ما قتله . وفي الرواية مطاعن :

فقول : أبي الحسن السوسي : « كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبي الخ » . يؤخذ منه أن مرور أبي الطيب بالاهواز كان في عهد المهلبي ، والمهلبي توفي سنة ٣٥٢ كما تقدم

ولو أن فاتكا لقي أبا الطيب في الاهواز فعرض عليه خفارته فأبى فعزم على قتله أو سلبه ما صبر عليه حتى قطع المسافة من الاهواز إلى واسط وهي خمسون فرسخاً ، ثم سار من واسط حتى جاوز النعمانية ، كما سيأتي ، وذلك أكثر من عشرين فرسخاً .

وقول فاتك إن الطريق إلى دير قنة موحش بعيد أن يقال في الاهواز وبينها وبين دير قنة مراحل كثيرة وبلدان عامرة ، وإنما يقال مثل هذا في موضع قريب من دير قنة النعمانية أو جبل .

ثم عرض فاتك خفارته على أبي الطيب وفي نفسه منه ما فيها مستبعد كذلك

فرواية أبي نصر أجدر بالقبول بعد حساب المبالغة فيها كقول أبي الطيب عن بني أسد « ابخره الطير تحوفني الخ . » فالرجل مهما تكبر وتهور كان أعقل من أن يقول مثل هذا القول : وأحسب أبا نصر حينما سئل عن مقتل أبي الطيب أراد أن يبين عن نصيبه في هذه القصة التي يتشوف الناس إلى سماعها فأدخل فيها شيئاً من الصنعة ، ومبالغة القصاص ، وبالغ في نصحه أبا الطيب وفي إباء هذا قبول النصيحة وهكذا

— ٢ —

سار أبو الطيب من الاهواز إلى واسط فنزل بها ، قال علي ابن حمزة البصري عن القصيدة الكافية التي ودع بها الشاعر عضد الدولة : « هذه القصيدة آخر شعر قاله أبو الطيب . وكتبتها والتي قبلها عنه بواسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمائة » (١)

بين واسط وبغداد زهاء أربعين فرسخاً ، وعلى الطريق بلاد نذكر منها ما ذكر في روايات مقتل أبي الطيب : وهي النعمانية ودير قُنّى ودير العاقول والصافية

النعمانية في نصف الطريق بين واسط وبغداد غربي دجلة وهي قائمة اليوم . وكانت تسمى بغيلة فأعيد اسمها القديم . ودير العاقول كان على شاطىء دجلة الشرقي ، وكان عنده مدينة مسماة باسمه ، وكان على ميل من النهر أيام ياقوت . وبينه وبين بغداد ١٥ فرسخاً ، وبينه وبين النعمانية زهاء خمسة فراسخ

وإلى الجنوب الشرقي من دير العاقول على مقربة منه دير مرماري الذي يسمى دير قُنّى أو (قُنّه) وهو على ١٦ فرسخاً من بغداد يبعد على الشاطئ قليلا

وأمام دير قنى على الشاطئ الصافية على فرسخين إلى الجنوب والشرق من دير العاقول . وكانت على ميل من الشاطىء في زمن ياقوت .

وعلى نحو ثمانين كيلاً من بغداد إلى الجنوب والشرق توجد اليوم أرض تسمى أرض الدير . ذهبت إليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وثلثمائة (٢) . فاذا تلال كثيرة متقاربة قليلة الارتفاع عليها حطام من الآجر والخزف تبعد عن شاطىء دجلة الشرقي نحو كيل واحد

وقد سألت أعرابياً نازلين هناك من قبيلة شمّر عن أرض أخرى تسمى أرض الدير في هذه الناحية فنفوا هذا . وسألت عن أسماء العاقول وقنى والصافية ، أتعرف اليوم هي أو ما يقرب منها ؟ فنفوا جازمين

وإذا نظرنا إلى المسافة بين هذه الأرض وبغداد فهي تقارب خمسة عشر فرسخاً . وهي المسافة المقدرة بين بغداد ودير العاقول في معجم البلدان وغيره

(١) نسخة بغداد (٢) ١٢ حزيران (يونيه) سنة ١٩٣٦

ومهما يكن فأكبر الظن أن هذه التلال بقايا دير قنى أو دير العاقول . وكانا متقاربين ، وهذا يدل على أن دجلة لم تغير مجراها كثيرا فى هذه الناحية

وأما الصافية فأحسب موضعها الآن فى مجرى النهر ، فقد كانت أيام ياقوت على ميل من دير قنى ، ويؤيد هذا قول صاحب مراصد الاطلاع عن الصافية ، « وقيل موضع دجلة »

— ٣ —

الروايات فى مقتل أبى الطيب متفقة فى جملتها ، ولكن بعضها أبين وأكثر تحديداً من بعض ، وهى فى التحديد قسمان :

١ — روايات تجعل مقتله قرب النعمانية أو قرب دير العاقول دون ذكر الموضع الذى قتل به (١)

— ٢ روايات تذكر الصافية على أنها موضع القتل أو قريبة منه وهى على مقربة من دير العاقول ، بينه وبين النعمانية ، فليست تناقض الروايات الأولى ، بل تزيد عليها تحديدا (٢)

— ٣ رواية ابن خلكان التى تحاول الجمع بين الروايات فتقول : « بالقرب من النعمانية فى موضع يقال له الصافية من الجانب الغربى من سواد بغداد عند دير العاقول بينهما مسافة ميلين »

وحق أن الصافية قريبة من دير العاقول ولكنها ليست قريبة من النعمانية إلا قرباً نسبياً

٤ — رواية ابن جنى ونسخة بغداد ونسخة فى الموصل (٣) تذكر مكاناً محرّفاً مضطرباً بين فرع ونيزع وشرع . ولم أجد لها ذكراً فى الكتب.

يستطيع الباحث بعد هذا أن يقول إن أبا الطيب قتل على مقربة من الصافية ، ولكن ابن خلكان وابن الأنبارى يقولان : « من الجانب الغربى من سواد بغداد » والصافية على الشاطئ الشرقى ، فكيف هذا ؟

رواية ابن خلكان متناقضة بلاريب ، فهو يقول فى موضع يقال له « الصافية من الجانب الغربى » وهذا خطأ ، وأحسبه اتبع ابن الانبارى فالعبارتان متقاربتان . فهل عبارة ابن الانبارى مقبولة ؟

(١) انظر رواية أبى نصر الجبلى فى الصبح ، ورواية الخطيب البغدادى
(٢) ابن الأنبارى ونسخة الأوقاف والمعرى
(٣) مكتبة يحيى باشا الجليلى

هو يقول « حيال الصافية من الجانب الغربى » فيمكن أن يقال إن مقتل الشاعر فى الجانب الغربى حيال الصافية على الضفة الشرقية — وكلمة حيال هذه صحفت فى بعض الروايات إلى جبال وليس عند الصافية جبال

يمكن قبول رواية ابن الانبارى بهذا التفسير لو لم نعرف الطريق بين واسط وبغداد أتسايرُ الضفة الشرقية أم الغربية من دجلة ، ولكننا نعرف من كتب المسالك أن الطريق شرقى دجلة . وقد عرفنا أنه مر بجبّل وليس لنا أن نفرض أنه سار شرقى النهر من واسط إلى جبل حيث نزل على ابن نصر ثم عبر إلى النعمانية ليعبر إلى الشرق مرة أخرى

وخلاصة هذه الكلمة أن جمع هذه الروايات ونقدها وتعرّف مواقع البلاد التى ذكرت فى الروايات والطريق بين واسط ودار الخلافة . كل أولئك يبين لنا أن مقتل أبى الطيب كان عند الصافية شرقى نهر دجلة على نحو ستة عشر فرسخاً من بغداد

— ٤ —

سار أبو الطيب من واسط يوم بغداد فى طريقه إلى الكوفة وكان مسيره يوم السبت سابع عشر رمضان . وفى هذا اليوم كتب عنه على بن حمزة البصرى راويته القصيدتين الأخيرتين من شعره كما تقدم

وبلغ جبّل بعد أن سار زهاء سبعة عشر فرسخاً فنزل عند أبى نصر الجبلى كما تقدم . ثم أخذ طريقه حتى حاذى النعمانية وهى فى نصف الطريق بين واسط وبغداد ثم سار فمر بجرجرايا على أربعة فراسخ إلى الجنوب والشرق من دير العاقول ثم تقدم حتى قارب الصافية وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخاً

وهنالك خرج عليه فاتك بن أبى جهل الأسدى خال ضبة ابن يزيد الذى هجاه أبو الطيب . وكان فاتك فى نيف وثلاثين فارساً راعين وناشبين (١) وكان مع أبى الطيب ابنه محسد وغلمانه الذين وصفهم فى القصيدة الميمية التى رثى فيها فاتكا وفى قصيدة توديع ابن العميد كما تقدم

ولا ندرى كم كان غلمانه ولكنهم كانوا ولا ريب أقل عدداً من عدوهم

(١) نسخة بغداد وفى الخزانة سبعين رجلا